لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء السادس

الخميس 6 رمضان 1443

سورة المائدة (٢٧ - ٣٢)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام وعلى نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نبدأ مستعينين برب العالمين في دراسة الآيات المختارة من الجزء السادس ونبدأ بإذن الله في سورة المائدة الآية: (27) إلى الآية: (32):

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ
أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَن
تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ

الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32))

هذه السورة العظيمة -سورة المائدة- سورة الوفاء، وقد استفتح رب العالمين -(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)[1] ، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)[2] - هذه السورة بأمر عظيم وهو: الأمر بالوفاء، الخطاب لأهل الإيمان ثم أمرهم -عزّ وجلّ- بالوفاء بالعقود وكانت السورة كاملة لبيان شأن الوفاء العظيم، ومن هنا يتضح موطن قصة ابني آدم، فإنه -سبحانه وتعالى- بعدما بيّن بيانًا عظيمًا أمورًا وصورًا من الوفاء، منها أن نلتزم بما أمر الله؛ لأن العباد بينهم وبين رب العالمين عقد، والواجب عليهم أن يوفوه، وها نحن نقول في سيد الاستغفار: «وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ»[3] فبيننا وبين رب العالمين عهد، وقد وعدنا -سبحانه وتعالى- إذا وفينا هذا العهد أن يعطينا الأجور، وهذا من فضله.

---

[1]() النساء: 122.

[2]() النساء: 87.

[3]() أخرجه البخاري (6306).

فأتت في هذه السورة أوامر كلها تقول: (بهذه الأفعال تكونون أوفياء) ثم أتت في السورة قصص تبيّن أحولًا لأقوام لم يكونوا من أهل الوفاء رغم أن كلّ شيء حولهم كان مهيأ لأن يكونوا أوفياء.

فأتت في هذا السياق قصتين:

القصة الأولى: هي قصة موسى -عليه السلام- أمرنا رب العالمين أن نتذكرها وأن نتذكر ما فيها من عدم قيام بما يجب وعدم وفاء بما أمر الله، وقصة موسى معروفة وهي أنه خاطب قومه وأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فلو كانوا بموسى مصدقين وعلى الله متوكلين؛ لكان منهم أن شجع بعضهم بعضًا ودخلوا الأرض وقاموا بما يجب عليهم من تقوى الله بامتثال أمر الله، لكن ما حصل خلاف ذلك!

ثم أتت القصة التالية معطوفة على هذه القصة وهي موضوع بحثنا،

القصة الثانية: قصة ابني آدم، في قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ) الخبر هنا عن قصة ابني آدم وما حصل بينهما، وهي أيضًا نموذج من نماذج الوفاء وعدم الوفاء، فنرى أن أحد الطرفين كان تقيًا وفيًا لما أمر رب العلامين، والثاني لم يكن تقيًا ولا وفيًا، وبين قصة موسى -عليه السلام- وقومه وبين قصة ابني آدم هناك مناسبة وهي مناسبة تماثل ومناسبة تضاد.

أما القصتان فإن في كلتيهما عدم وفاء وعدم الرضا بما حكم الله؛

- لأن بنو إسرائيل عصوا أمر رسولهم لما أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدسة.
- وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين.

وفي كلتيهما جراءة على الله بعد المعصية، فبنو إسرائيل قالوا لنبيّهم: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا).

وابن آدم قال: (لَأَقْتُلَنَّكَ) لأن الله تقبل منه! لماذا يتقبل الله منك ولم يتقبل مني؟! فحين يحصل ضعف للوفاء بعهد الله وضعف لتقوى الله نجد هذه الجراءة.

أما التضاد بين القصتين: فنجد في قصة ابني آدم إقدامًا مذمومًا وشجاعة مذمومة، وفي قصة موسى -عليه السلام- إحجامًا مذمومًا وجبنًا واضحًا.

وأيضا نجد أمرًا آخرًا يلاحظ وهو: أن في قصة موسى -عليه السلام-وهارون اتفاق على امتثال أمر الله، فمما يعين على الوفاء وجود الإخوان الأتقياء.

في قصة ابني آدم اختلاف أخوين بالصلاح والفساد وفي قصة موسى اتفاق أخوين على امتثال أمر الله، وهذا كله يعود إلى أصل الأمر؛ وهو: إن كان يشعر الإنسان تجاه أمر الله أنه أمانة يجب الوفاء بها، وأن يكون من الأتقياء فتجده يجتهد في القيام بما أمره الله، وإن كان الأمر عنده خلاف ذلك وكان الوفاء بالعهد ضعيف فنجد ما نجده الآن ونحن نتدارس هذه القصة.

وتبدأ القصة بأمر الله -عزّ وجلّ- لنبيه -صلّى الله عليه وسلّم- أن يتلو، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وفي هذا دلالة على أن هذا الأمر عظيم، أمر الله -عزّ وجلّ- رسوله أن يتلو عليهم هذا النبأ لأهميته، وقد أُمر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أن يبلغنا القرآن كله ويبيّنه لنا لفظا ومعنى، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(4) فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد قام بهذه الوظيفة، لكن هذه القصة ابتدأت بهذه الصورة للدلالة على أهميتها وأنها من الأنباء المهمة، فالنبأ لا يكون إلا في الأمر الهام، فأمر الله -عزّ وجلّ- رسوله بإبلاغنا هذا النبأ من أجل ما نجد في هذا النبأ من معانٍ عظيمة، نبأ

---

[4]() النحل: 44.

ابني آدم وهما ابنان لصلبه، وإلا فجميع البشر بني آدم، لكن في القصة المقصود إبنان لصلبه، وقد ذكر في الأخبار -والله أعلم بالحق- أن أحدهما اسمه: هابيل والثاني قابيل، وهذا أمر لا يشغلنا، أيًّا كان، المطلوب أن نذكر قصتهم.

هذه القصة عندما تذكرها وتذكر ما فيها من فوائد لا بد أن تعرف أنها قصة تُليت عليكم بالحق، بمعنى: أن هذه القصة ليست أسمارًا، وليست تسلية، وإنما تلاوة هذه القصة مع اليقين بحدوثها، ومع اليقين أن فيها من الفوائد ما فيها، وتقف أمام هذه الفوائد لتعتبر، لا تحملها على اللعب والباطل مثل القصص التي لا فائدة فيها وتكون لهو للحديث، فالمقصود بالقصص في القرآن العبرة لا مجرد الحكاية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ لكن لمن؟ ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[5] الذين عندهم عقول.

هذه القصة حُكيت لنا بالحق، ثم حين تفكر في المقصود بـــ(الحق) تفكر في المصالح، الفوائد الكثيرة التي تحتويها هذه القصة وكيف أنه حين يتأمل الإنسان في هذه القصة يرى حقيقة النفوس؛ لأن القرآن يحكي لنا حقيقة نفوسنا، وهنا لا بد أن نعرف أننا لا نعرف نفوسنا على الحقيقة إلا من خلال ما يعلمنا رب العالمين. أما كل هذا الذي نسمعه أخبارًا عن النفس قد تكون تخرصات، قد تكون ملاحظات لكن الاستنتاج

---

[5]() يوسف: 111.

ليس صحيحًا، فنحن جميعًا إذا أردنا أن نعرف حقيقة أنفسنا فليكن القرآن هو قائدنا الذي يقودنا إلى هذه المعرفة، فإذا أردت أن تعرف حقيقة الإنسان فانظر إلى مثل هذه القصة في كونها تكشف عمّا في النفوس من حسد وتبيّن أن كل ذي نعمة محسود، وحين تفهم هذا تفهم كيف كان النبي -صلّى الله عليه وسلّم- محسودًا على نعمة الرسالة، أعظم النعم هي نزول الوحي، وقد مر معنا أن أهل الإسلام محسودون على الإسلام؛ لذلك يتفق الأعداء على أنواع من المكر والكيد في حق أهل الإسلام وفي حق رسول الإسلام، فلا تستعجب أنهم في كل زمن يخرجون بمكر يسبون فيه النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ويؤذون أهل الإسلام، هذا أمر ليس عجيبًا، وسيتبيّن أكثر إن شاء الله شيء من فوائد هذه القصة.

أول القصة أن ابني آدم، اللذان هما على دين آدم -عليه السلام- أرادوا أن يتقربوا إلى الله بقربان، وهذا أمر من المؤكد أنه قد علمهم إيّاه أبوهم آدم، فتقربوا بقربان، والقربان هو: اسم لما يتقرب به إلى الله سواء كانت ذبيحة أو صدقة. أيًّا كان، شيء أرادوا به التقرب إلى الله، وهذا التعميم يجعلنا نستفيد الفائدة القادمة؛ أن أي شيء سنسميه قربان سيتبيّن ممن يتقبل. (فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ) وكان هناك من المؤكد علامة للقبول عرفوا بها أن الله -عزّ وجلّ- تقبل هذا القربان ولم يتقبل هذا، وفيما اشتهر في التفسير "أن نارًا تأتي

من السماء تأكل القربان الذي تُقبِّل" هذا من الأخبار والله أعلم.

لماذا تُقبِّل أحد القربانين ولم يُتقبل الآخر؟

هنا يأتي موضوع السورة؛ وهو أن الله يتقبل من الأوفياء الأتقياء؛ لأن التقوى شرط في قبول الأعمال، أمر عظيم هذه الآية دليل على أن الله لا يقبل إلا طاعة مؤمنًا تقيًا، وهذا يجعلنا في اجتهاد في فهم معنى التقوى، وكيف نكون أوفياء في سيرنا إلى الله من أجل أن هذا هو الشرط الذي به يحصل القبول، وأصل التقوى: تقوى الشرك الأكبر والأصغر، ويكون من وراء هذه التقوى الرغبة الدائمة في رضا رب العالمين، والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- يقول «التَّقْوَى هَاهُنا»[6] وأشار إلى القلب، فيكون المتقي على خوف ووجل من التقصير في طاعة رب العالمين، يكون هذا التقي غاية في التقوى من أن يلتفت قلبه يمنة أو يسرة إلى غير الله، وهو قائم بهذه الطاعة. فلا يكون في هذه الطاعة بعينها شركة لأي أحد أو لأي مطلب، إنما تكون غايته أن يرضى رب العالمين.

فهذه المقاصد هي أصل حال الأتقياء؛ أن يكونوا سائرين راغبين في رضا رب العالمين، سائرين راغبين غير ملتفتين، يعرفون أن بينهم وبين الله عهد وعقد عليهم الوفاء به، فتجدهم مجتهدين في كل أوقاتهم يقطعونها إلى الله بالطاعة، والعبادة،

---

(6) أخرجه مسلم (2564).

والذكر، والإحسان إلى خلق الله، والقيام بما يجب عليهم من أعمال قد جعلها الله لكل شخص وظيفة لكل وقت، فإن كل منا له وظيفة تختص بحاله، وله وظيفة تختص بوقته، فالمرأة لها وظيفة في بيتها ولأهل بيتها، ولكل وقت وظيفة؛ فوقت الفرائض للفرائض ووقت النوافل للنوافل؛ ولذلك لو نظرنا إلى الصلاة لوجدنا الصلاة عبارة عن إشغال للوقت، والذكر الذي في الصلاة إشغال للوقت وللّسان وللقلب وللبدن يتجه إلى رب العالمين وهكذا.

فالأتقياء الذين يتقبل منهم إنما هم قوم استقر في قلوبهم الإيمان بالله واليقين بلقاء الله، فرغبوا إلى الله ورهبوا من الله وأقبلوا على الله، وعلموا هذا المعنى المهم (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ونلاحظ أداة الحصر(إِنَّمَا) أي: لا يتقبل الله إلا من المتقين، والمتقي -كما تبيّن- الذي امتلأ قلبه إيمانًا بالله ورغبة فيما عند الله، وإرادة للوفاء بما عاهد الله عليه، وهذا المتقي باذلًا جهده في كل وقت للقيام بما يجب عليه، هذا من الفوائد العظيمة التي في القصة؛ لذلك الله -عزّ وجلّ- نبهنا إلى أهمية القصة لما وجّه الأمر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أن يتلو هذه القصة خاصّة وسماها "نبأ".

فنحن ينبغي علينا أن نعرف أنباء من سبقنا لأن فيها من المصالح ما فيها وهي متلوة علينا بالحق لنأخذ منها العبر. فهنا من العبر العظيمة: أن نعرف أن الله إنما يتقبل من المتقين، وهذا حق ويقين.

تبقى كلمة التقوى من الكلمات التي تحتاج دائمًا إلى تغذية وتذكير، وتبقى هذه القاعدة القرآنية من القواعد المهمة مطلقًا لنعرف كيف نسير إلى رب العالمين، ونكون متقين بأن يكون عملنا خالصًا لوجه رب العالمين، ولنكون متبعين لسنة رسولنا الكريم -صلّى الله عليه وسلّم-.

لما تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال: (لَأَقْتُلَنَّكَ) ولذلك قال له أخوه: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) الكلام فيه حذف، كأن هابيل قال: "لم تقتلني"؟ قال: "لأن قربانك صار مقبولًا"، فقال هابيل: "وما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين".

هنا تبيّن أن الأخ نصح أخاه وبيّن له أن السبب ليس تمييزًا شخصيًّا، لي وإنما السبب: أن هناك صفة يجب أن تحملها، فأنت في المرة القادمة تقرب وكن من المتقين فيُقبل منك، فما الذي يمنع أن يُقبل منك؟ وهنا يأتي دور الشيطان حين يُشعر بعض الناس أنهم منبوذين، وأنهم عن باب الله مطرودين، وأن باب الله مغلق عليهم! نعوذ بالله من اليأس من روح الله، بل باب الله مفتوح لكل الخلق؛ كافر، مؤمن، بر، فاجر، تقي، عاصي، مفتوح للجميع والتوبة هي الطريق لرب العالمين.

(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) فنصحه وعلمه وبيّن له على أن يكون المرة القادمة من أهل التقوى، لكن ما كان هذا في قلب الذي لم يُتقبل منه، وإنما كان في قلب الذي لم يُتقبل منه الحسد الشديد.

وهنا نلحظ أيضًا أن الله -عزّ وجلّ- مطّلع على قلوب العباد «التَّقْوَى هَاهُنا» فنلحظ من تصرفه التالي أن هذا كان يستحق ألا يُقبل منه لأن قلبه ليس فيه خير لأنه بمجرد ما رأى أن الأخ، الذي يُحب ويُحب له المصلحة، أصبح أحسن منه فما فكر إلا أن يقتله! فأول ما خطر على باله القتل. تصور كيف تكون هذه النفس التي أول ما يخطر على البال عندها هو القتل! قال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وهذا حسد وبغي، لماذا تقتله؟ كأنه يقول: "أنا ليس لي ذنب، الله الذي تقبل" بهذا تكون معترضًا على الله وليس عليّ، لكن أكمل الأخ وزاد وعظًا لأخيه وبيّن له وقال:

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ أي: لئن قصدت أن تتجرأ وتستعمل ما أعطاك الله -عزّ وجلّ- من جوارح لأجل أن تقوم بمعصية الله. تبسط يدك، وتمدها إليّ! هذه اليد التي كان يجب أن تتعاون معي على البر والتقوى، تبسطها لتقتلني بها؟ ما ذنبي؟ القبول والردّ إنما هو لله، جعل الله للقبول ميزانًا وجعل للرد ميزانًا، من كانت عبادته خالصة، موافقة للشريعة قُبلت، ومن كان قلبه تقيًا قُبل منه، وخلاف ذلك لم يُقبل منه، فالرد عليه كان موجبًا أن يتوب وليس موجبًا لأن يزداد طغيانه وحسده!

ثم أن تبسط يدك وتمدها، هذه اليد التي كان الواجب أن تكون للتعاون على البر والتقوى، لأجل أن تقتلني؟ لكن إن حصل منك هذا ﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ يدك لتفعل هذا الفعل ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أنا لن أفعل هذا، وهنا يمكن أن يأتي سؤال: لماذا لن يدافع عن نفسه؟ يمكن أن يكون المعنى أنه يقول: "أنا لن أدافع عن نفسي، بل سأستسلم" أو يكون المعنى: "ما أنا بقاصد قتلك". إذا أنت ستتربص بي حتى تقتلني، أنا لن أتربص بك حتى أقتلك. لأنه لما حصل القبول لأحدهما ولم يحصل للآخر، وحصل هذا الحديث بينهما، ثم انفض مجلسهم، تربص بأخيه حتى يقتله، وسيتبيّن هذا.

هذا يجعلنا نفهم كيف أن التقوى في القلب «التَّقْوَى هَاهُنا» نلاحظ أنه قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه حقيقة التقوى؛ الخوف من الله؛ لأن الإنسان حين يخاف من رب العالمين ويكون مشغولًا في التفكير في رضاه وفي يوم لقاه وكيف يكون بين الله وبين العبد لقاء خاص، وهذا يؤمن به أهل الإيمان ويعلمون أن الله يوم القيامة يحدث العباد ما بينه وبينهم ترجمان، فيحمل همّ ذاك اللقاء ويحبس نفسه على الوفاء خوفًا من الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ربي وربك الذي سيحاسبنا، رب العالمين الذي أنعم عليّ وعليك بهذه النعم، رب العالمين الذي ربانا حتى أوصلنا إلى هذا الطريق المستقيم، فكيف أفسد ما رباني عليه؟ أنا لن أقصد قتلك أبدًا في أي وقت من الأوقات، أنت إذا أتى وقت منك وأردت أن

تقتلني فلتعلم أني لن أفعل هذا الفعل، وهذا منه تقوى عظيمة وإرادة ألا يكون ممن يقتل النفس فيحصل عليه ذنب عظيم، وهذا كان فعل عثمان -رضي الله عنه- وقد قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لمحمد بن مسلمة -رضي الله عنه- لما كان يسأله عن الفتنة، وليس الدفاع عن العِرض ودفاع الصائل، إنما يسأله عن الفتنة، فقال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- : «ألْقِ كُمَّكَ عَلى وجْهِكَ وكُنْ عَبْدَ اللَّهِ المَقْتُولَ ولا تَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ القاتِلَ»(7) وهنا الكلام عن الفتن، حين تشتعل الفتن ويصبح الناس يترصدون للناس ويقتلون ويُفقد الأمان -نعوذ بالله من هذا الحال- ويحمل الناس بعضهم على آراء بعض ويقتلون على ذلك فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- أرشد إلى هذا، أمّا دفع الصائل فهذا جائز، وهذا سيأتينا فيما يتقدم من اختيارات نتكلم فيها عن هذا الموضوع.

أفاد هذا الأمر وبيّن له أن رب العالمين الذي رباه بنعمه فلن يفسد على نفسه هذه التربية، وبيّن أن هذا ليس صادرًا من العجز إنما هذا صادر من الخوف من الله -عزّ وجلّ-، في هذا الموقف -موقف التهديد- كان يجب أن يبيّن له ما يخيفه وما يمنعه من القيام بهذا العلم، قام بدور الواعظ فبيّن له أنه يجب عليه خشية الله، وأنه بنفسه سيكون قدوة له في أنه لن يبسط يده إليه، وبيّن له أنه يخاف رب العالمين إن بسط يده إليه ليقتله أن يعاقبه الله، وكأنه يقول: "أنا لن أبسط يدي وأنا أدافع

---

(7)صححه الألباني في إرواء الغليل:(8/101).

فما ظنك بحالك وأنت البادي العادي". ونلاحظ الوعظ هنا ونلاحظ النفع من الأخ الذي لم يستفد منه، ونلاحظ تنبيهه أنه رب العالمين، ليتأكد الخوف أنه ربي وربك ورب كل شيء، الذي بيده كل شيء.

فزاد في وعظه أنه بيّن له أني سأستسلم لك إذا نويت أن تقتلني وأتيت لقتلي، لكن هذا ليس من ضعف، إنما لأجل هذا الأمر، وهذا لا زال في مقام تخويفه.

(إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

(إِنِّي أُرِيدُ) بهذا الاستسلام (أَن تَبُوءَ) أن ترجع إلى الله حاملًا إثم قتلي وإثمك الذي كان من قبل قتلي، الذي من أجله لم يُتقبل القربان وهو ما في القلب من شر -نعوذ بالله من الشر- فتكون بالإثمين من أصحاب النار (وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) وهنا نؤكد أنه أراد بهذا الوعظ أن يخاف أخوه وأن يعود، وأن يجد في نفسه ما يجد الإنسان العاقل عندما يعظه أحدًا ويخوّفه، لكن الشر كان متمكنًا منه.

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ) رخصت له وسهلت له نفسه قتل أخيه، نلاحظ أن الله -عزّ وجلّ- صرح بأخوّته ليحصل كمال تقبيح ما سوّلته له نفسه وطوّعته، والحقيقة أن الإنسان إذا تصور القتل العمد على صورته الحقيقية، وأنه عدوان، وأنه من أعظم الكبائر، وأن الندم وراؤه عظيم، كان هذا الاعتقاد كافيًا لأن يصرف الإنسان عن فعله، وهذه هي الحقيقة، أن بعد هذا الوعظ كان المتوقع أن تكون الرغبة في هذا الفعل كالشيء المتمرد الذي لا يطيعه، الرغبة في قتل الأخ كأنه شيء متمرد، النفس في الأصل لا تطيعه، لكن لنكتشف ماذا يفعل الحسد في النفوس وكيف يعمي الأبصار، وكيف يمكر أهله. فالنفس أوردت أنواع من الوساوس وبقي حديث النفس يهون الأمر ويسهله ويجعله مرغوبًا ويجعله شفاء لما في القلب من حسد، فتورث النفس أنواع وساوس بحيث يصير الأمر الصعب على الفطرة السوية سهلًا! فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه، القتل كان عاصيًا متمردًا لكن النفس قامت بتطويع القتل، بجعله أمرًا يسيرًا، لو تصورنا حمل السلاح كأنه شيء صعب، كأنه شيء عاصٍ، متمرد لا نستطيعه، لكن النفس بوساوسها تجعل هذا الشيء العاصي المتمرد كالمطيع بعد أن كان عاصيًا، يصبح كالطائع بعد أن كان عاصيًا.

قال الله -عزّ وجلّ- : (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ) سبحان الله، فحصل هذا القتل، وقد قيل إن إبليس كان له دور عظيم هنا في تعليمه كيف يكون القتل.

(فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بعد أن هيّأ له إبليس بالتعاون مع نفسه لهذا القتل، وهنا نلحظ أن هناك تعاون بين النفس ووساوسها وبين الشيطان، فينفخ الشيطان في نقطة الضعف عند الإنسان، (فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) خسر دنياه وأخراه، أما الدنيا فواضح أنه صار مطرودًا ومبغوضًا للخلائق.

وأما الآخرة فينتظره العقاب العظيم لأنه صار حاملًا للدماء إلى يوم القيامة.

وهنا سنجد موقفًا آخرًا من المواقف التي تدل على غرابة هذه النفس، وهو ما حصل بعد القتل، بعدما طوّعت له نفسه قتل أخيه رأى جثة أخيه موجودة:

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

الذي يظهر أن الله بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر بمنقاره ورجليه وألقاه في الحفرة، فالقاتل الآن واقع في نفسه أنه ماذا يفعل في هذه الجثة، وكيف يخرج من هذا الذي تراه عينيه، فأراه الله -عزّ وجلّ- هذا الأمر (كَيْفَ يُوَارِي) أي:

كيف يغطي. فلما أراه الله هذا الأمر ماذا وقع في نفسه؟ قال قولًا يدل على أنه متحسر، وكأنه ينادي الويل:

(قَالَ يَا وَيْلَتَا) هذه كلمة تحسر وتلهف، ثم يبيّن رب العالمين لنا على ماذا يتحسر، على ماذا يندم؟ ندم على عجزه أن يكون مثل هذا الغراب في أن يدفن هذا الأخ، لما رأى الغراب يدفن الغراب الآخر، كأنه شعر بأن هذه الحيلة ما به لم يأتِ بها؟! وأيضًا يمكن أن يكون رقّ قلبه ووقع في نفسه أن هذا العمل كان المفروض أن يأتي منه ويبتدؤه هو، فكيف أن الغراب الذي هو من أخس الحيوانات، وهو من الفواسق، ومع ذلك يفعل هذا الفعل، فكيف لا أفعله أنا؟! هو يستفهم ليتعجب من نفسه من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ولم يكن نادمًا على قتله؛ لأنه لو كان نادمًا لحصلت التوبة، فالذي يظهر أنه متحسرًا على عدم اهتدائه!

وهنا نجد ملمحًا آخر من ملامح هذه النفس التي فيها مرض وفيها كبر وفيها حسد وفيها عدم قبول لحكم الله، ومع ذلك ما فيها ندم خوفًا من الله! وقد ذكر بعض المفسرين أنه لما رأى الغراب يحن على أخيه الغراب ويدفنه، ندم على قساوة قلبه في مقابل رحمة الغراب لكن ليس لأجل الخوف من الله، فهذا لم ينفعه ندمه، وهذا قول من الأقوال، والله أعلم.

لو أخذنا أنه ندم على كون الغراب عرف كيف يتصرف وهو لم يعرف كيف يتصرف، فنجد أن النفس حتى حين تصل

إلى غاية ارتكاب الذنوب، الذنب العظيم الذي هو القتل، وهو من أعظم الذنوب بعد الشرك، إذا كان القلب قاسيًا فإن الندامة والعودة إلى الله تكون بعيدة، فمن أهم علامات التوبة: الندم، وهذا لم يحصل له ندم لأجل الله وإنما أصبح من النادمين لأجل أن الحيوان كان أحسن منه، وهذا دليل أن الحيوانات قد تكون مرشدة للبشر، وهذا كثير، فالغراب هنا أرشد ابن آدم إلى أن يحفر لأخيه ويدفنه، وصارت سنة البشر إلى يومنا هذا، ومع ذلك نلحظ أن رب العالمين أخبرنا عنه وأنه من الخاسرين وليس من الناجين؛ لأنه ذكر -سبحانه وتعالى- (فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) في الحالة الأولى بعد قتله لأخيه، وبعدما رأى موقف الغراب (فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) يمكن على قتله لأخيه، لكن ليس خوفًا من الله إنما بداعي الأخوة الإنسانية وأيضًا على عجزه أن يكون عارفًا كيف يواري سوأة أخية، وكلا الأمرين ليس خوفًا من الله! شرط التوبة النصوح أن تكون صادرة من الخوف من الله، مثلما قال الأخ الذي امتنع عن أن يقتل أخيه : (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) فترك الذنوب والمعاصي والتوبة منها إنما يكون توبة حقيقية إذا كان وفاء بحق الله، ثم لا مانع بعد أن يكون وفاء بحق الله أن تكون الأمور الفطرية الطبيعية التي جعلها الله في نفوسنا تعيننا على القيام بما يجب علينا.

(مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

ومن هنا بيّن رب العالمين أن من أجل ما مر من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بني إسرائيل القصاص، والعلاقة واضحة، وهي أن هذه القصة بيّنت أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل المحرم، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أصبح له خسارة في الدنيا والآخرة وعاش حياته وهو يذوق أنواع الحسرة والندم والحزن، ولا دافع لها أبدًا.

فمن أجل هذه المفاسد المتولدة عن القتل العمد شرّعنا القصاص في حق القاتل، وأشير إلى بني إسرائيل خاصة لأنهم:

الأمر الأول: يجمعون بين الحسد الذي هو سبب هذا القتل.

الأمر الثاني: قتلهم حتى للأنبياء.

فهم قوم رغم وعظ رب العالمين لهم وبيان الأمر بوضوح، لكنهم قوم جمعوا بين قساوة القلب والحسد والجرأة على أنبياء الله وعلى الخلق، وخصوا بالذكر لأنهم القريبون منا فالواجب الوعظ لمثل هؤلاء والبيان لهم، وشرعهم معروف لأهل الإسلام، خصوصًا في ذاك الزمان، فأُخبرنا عمّا شُرع لهم وعرفنا من خلال هذا الشرع أنه شرع لنا أيضًا.

وبيّن -عزّ وجلّ- هنا خطورة القتل أنه (مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ) توجب الاقتصاص (أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ) قتلها وهي لم تكن فاسدة مهدرة الدم، فهناك أمور لا بد أن يحصل فيها القتل، لكن إذا قتلت النفس بغير النفس من القصاص، أو مقابل حكم تعزيري في الفساد في الأرض فأُهدر دمه (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) وهذا من أعظم ما نعرف به حرمة الدماء، وهذا يمنع الإنسان منعًا باتًا من أن يخطر على باله مثل هذه الفكرة، فقتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله والعذاب العظيم.

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) من تسبب في بقاء حياتها بعفو، أو بمنع عن القتل، أو ينقذها من أسباب الهلكة؛ مثل حال الأطباء أو الممارسين الصحيين، فكأنما فعل ذلك بالناس جميعًا، وهنا نعود إلى تعظيم حرمة النفوس مع تعظيم حرمة الأموال، كما مر معنا أمس، وأن هذا أمرًا عظيمًا.

فهذا السياق كله يعظم قتل النفس ويأمر بإحيائها، وكل من تسبب في إحيائها فكأنما أحيا الناس جميعًا.

هذا الدين القويم العظيم يصلح المجتمعات ويمنع فيها الفساد، ولذلك كلّما عظّمنا ما عظّم الله وجدنا المجتمع يستقر، والواجب علاج أصل السبب في وقوع القتل، وهو: الحسد والطمع وعدم الرضا بما قسم الله، إن القلوب فيها من الأمراض ما يجعلها تتجرأ على محارم الله، وعلى حدود الله،

فالواجب علاجها وتطبيبها وإحيائها بذكر الله ونشر دين الله لتبقى مجتمعات المسلمين في أمن وأمان وسلامة من هذه المظاهر التي تخالف الدين والتي لا تظهر إلا عند الكافرين الذين لا يعرفون رب العالمين، ولا يعرفون دين الإسلام ولا يعرفون حرمة الدماء والأموال.

فالله الله بعلاج القلوب، الله الله بالرضا بما قسم الله، الله الله بالاشتغال بالوظيفة وهي طاعة الله والوفاء بعهد الله، نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا من الأوفياء ومن الأتقياء.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الفهرس

اللقاء السادس 3

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) 5

(لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) 12

(إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) 14

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) 15

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) 16

(مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) 18

الفهرس 21